الباب الأول: السياسة الداخلية

الفصل الأول

الجوانب السياسية أيام الرشيد

- أولًا: وزراء هارون الرشيد.
- ثانيًا: كتَّاب هارون الرشيد.
- ثالثًا: الحجابة في عهد الرشيد.
- رابعًا: ولاة العهد لهارون الرشيد.

obeikandl.com

ألم تر أن الشمس كانـت سَقِيمَة فلما وَلِي هـارونُ أشْرَقَ نورها

الشاعر إبراهيم الموصلي. الطبري: تاريخ الرسل والملوك (8/ 233)

obeikandl.com

أولًا: وزراء هارون الرشيد

ظهرت الوزارة للمرة الأولى في العصر العباسي، وكانت مرتبة الوزير تأتي في المرتبة الثانية بعد الخليفة مباشرة، ولم تكن سلطات الوزير محددة في البداية، ولكنها اتضحت وتعددت في شكلها النهائي أواخر العصر العباسي الأول[1]. وما يعنينا هنا هو تناول الوزارة وأحوالها في عصر الخليفة هارون الرشيد رحمه الله، وأهم أعمال الوزراء وما آلوا إليه.

أولًا: علي بن يقطين

هو أبو الحسن علي بن يقطين بن موسى مولى بني أسد، ولد بالكوفة سنة 124هـ، وكان أبوه من وجوه دعاة الإمامية، وهو كذلك له ميول شيعية، وكان له شأن كبير في الدولة العباسية لمكانة أبيه، ولما أفضت الخلافة إلى المهدي استوزر عليّ بن يقطين وقدَّمه، وجعله على ديوان الزمام وديوان البسر والخاتم، فلم يزل في يده حتى توفى المهدي، وأفضى الأمر إلى الهادي فأقرَّه على وزارته، ولم يشرك معه أحدًا من أمره إلى أن توفى الهادي، وصار الأمر إلى هارون الرشيد فأقرَّه شهرًا ثم صرفه بيحيى بن خالد البرمكي. توفي عليّ بن يقطين ببغداد سنة 182هـ وصلى عليه ولي العهد الأمين بن الرشيد، وتوفي أبوه بعده في سنة 185هـ، ولعليّ بن يقطين كتاب: «ما سأل عنه الصادق من أمور الملاحم»، وكتاب: «مناظرته للشاك بحضرة جعفر»[2].

(1) أمينة البيطار: تاريخ العصر العباسي، ص322 – 323.

(2) ابن النجار البغدادي: ذيل تاريخ بغداد، 4/ 202 – 204. إسماعيل باشا الباباني البغدادي: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، 1/ 667.

وللتعليق على وزارة علي بن يقطين، نقول:

أولًا: لم أجد في كتب التاريخ التي وقفتُ عليها مثل مروج الذهب للمسعودي وتاريخ الطبري وتاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن كثير، بل وكتب الشيعة كالفخري لابن طباطبا العلوي من تناول وزارة علي بن يقطين لهارون الرشيد، إلا أنه كان من رجال دولته ومشورته، وإنما عهد الرشيد للوزارة إلى يحيى بن خالد البرمكي. ولم يذكر هـذه الوزارة إلا ابن النجار في ذيله على تاريخ بغداد للبغدادي.

ثانيًا: هـناك علامة استفهام على وزارة علي بن يقطين لهارون الرشيد - كما قررنا - مع كونه شيعيًّا، ولعل الرشيد أراد أن تستقر أحوال دولته في بداية حكمه، فرأى الرشيد أن يرفق بالعلويين، وأن يزيل أثر سياسة الهادي العنيفة، فعند مجيئه للحكم بذل الأمان للطالبيين[1]، ولعل بادرة هـذا الأمان أن استوزر عليّ بن يقطين، ورفع الحِجر عمن كان منهم ببغداد سنة 171هـ، ويروي الفضل بن الربيع أن الرشيد كانت له ميول علوية، وإن صح ذلك فإن ميوله لم تكن تتجاوز حدود العاطفة[2]. على أن الصفا هـذا لم يطل، وحدثت حوادث كثيرة عكرت صفو هـذه العلاقة، منها خروج يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن سنة 176هـ على نحو ما سنبينه من سياسة الرشيد مع العلويين[3].

ثانيًا: وزارة يحيى بن خالد البرمكي

لم يعظم مركز الوزارة وتستقر قواعدها إلا منذ أيام المهدي، وليس أدل على ارتفاع مكانة الوزير في دولة بني العباس بعد المهدي من الإشارة إلى المكانة التي تبوأها البرامكة في خلافة الهادي والرشيد، فقد قبضوا على أزمة الحكم، وأصبحت شئون الدولة في أيديهم يتصرفون فيها كما شاءوا إلى أن نكبهم الرشيد

(1) المقدسي: البدء والتاريخ، 6/ 101.

(2) عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، ص 110.

(3) انظر: ص161.

سنة 187هـ[1].

فإنه لما بويع هـارون الرشيد بالخلافة كان يحيى بن خالد البرمكي في السجن، فيقال إن الخيزران هـي التي أمرت بإخراجه من السجن، وقام هـو بدوره بالذهاب إلى هـارون وأعلمه بالخبر، وهنَّأه بالخلافة، ويقال إن الرشيد هـو من أخرج يحيى من السجن، وأي من الروايتين صحت فإنها تدل على متانة الصلة بين الرشيد ويحيى البرمكي[2].

ولما أفضت الخلافة إلى هـارون استوزر يحيى بن خالد، وقال له: "يا أبتِ أنت أجلستني في هـذا المجلس ببركتك ويُمنك وحسن تدبيرك، وقد قلدتك الأمر"[3]. وفوَّض الرشيد أمور دولته إليه، وقال له: "قد قلّدتك أمر الرعيّة وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت، واعزل من رأيت، وأمض الأمور على ما ترى"، ودفع إليه خاتمه[4].

وأما عن حال الوزارة في عهد يحيى بن خالد البرمكي، فيقول ابن طباطبا: "فنهض يحيى بن خالد بأعباء الدولة أتمّ نهوض، وسدّ الثغور وتدارك الخلل، وجبى الأموال وعمّر الأطراف، وأظهر رونق الخلافة، وتصدّى لمهمّات المملكة، وكان كاتبًا بليغًا، لبيبًا أديبًا سديدًا، صائب الآراء حسن التدبير ضابطًا لما تحت يده، قويّا على الأمور، جوادًا يباري الريح كرمًا وجودًا، ممدّحًا بكلّ لسان، حليمًا عفيفًا وقورًا مهيبًا"[5].

(1) السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب، العصر العباسي الأول، 3/ 255.

(2) انظر الرواية الأولى: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 212. الجهشياري: الوزراء والكتاب، ص132 – 133. الرواية الثانية: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 230. أحمد القطان ومحمد طاهر الزين: هارون الرشيد الخليفة المظلوم، ص63.

(3) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 280. الجهشياري: الوزراء والكتاب، ص134.

(4) مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، 3/ 504.

(5) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، 1/ 197.

ويمكننا القول: إن وزارة يحيى بن خالد البرمكي وأبنائه مثلت المرحلة الذهبية لفترة حكم الرشيد، فهم من حملوا أعباء الدولة وصرَّفوا أحوالها، فشيدوا وبنوا واهتموا بالعلم والعلماء ومكَّنوا للرشيد، فكانوا سيفه الذي يبطش به الثائرين على الخلافة وهيبة الدولة، وظل هـذا الحال إلى نكبهم الرشيد سنة 187هـ، على نحو ما سنذكره بالتفصيل في سياسة الرشيد مع الفرس[1].

ثالثًا: وزارة الفضل بن الربيع

بعد أن انقضى أمر البرامكة استوزر هـارون الرشيد أبا العباس الفضل بن الربيع، وكان الفضل حاجبه، ولمَّا ولي الوزارة تهوَّس بالأدب، وجمع إليه أهل العلم، فحصل منه ما أراد في مدة يسيرة، وكان أبو نواس من شعرائه المنقطعين إليه، فمن شعره في آل الربيع:

عبَّاس عبَّاس إذا اضطرم الوغى والفضلُ فضلٌ والربيعُ ربيعٌ[2]

ولم تكن الوزارة في عهد الفضل بن الربيع على ما كانت عليه في عهد البرامكة، إذ اختلت الأمور، ولم يقْوَ الفضل على الإشراف على قصر الخليفة وعلى مملكته، إذ شغلته خدمة الخليفة، وتدبير شئونه الخاصة، فأضاع ما وراء ذلك من الشئون والأمور، فتعطلت المصالح واضطربت الأمور، وكانت الصحف التي ترد من الولايات لا تجد من يفضُّها ويجيب عنها، فقد ذكر الفضل بن مروان أن أمور البريد والأخبار في أيام الرشيد كانت مهملة، وأن الرشيد توفي وعندهم أربعة آلاف خريطة لم تفض، وكان الرشيد يرى ذلك فيتمثل بقول الشاعر:

أَقِلُّوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا لِأَبِيكُمُ مِنَ اللَّوْمِ أَوْ سُدُّوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا[3]

(1) انظر: ص167.

(2) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، 1/ 209. ابن الأبار القضاعي: إعتاب الكتاب، 1/ 99.

(3) الجهشياري: الوزراء والكتاب، ص 207.: ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 1/ 335. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية – الخلافة العباسية، 3/ 302، 352.

لقد حاول الفضل بن الربيع قدر المستطاع أن ينال مركزًا أو حظوة مثل ما نالته البرامكة، ولكن دون جدوى؛ فهو لم يكن على مستوى البرامكة في الكرم، ولا في ذكائهم، أو سعة نفوذهم ولا حسن تدبيرهم.

وأيّا ما كان الأمر فإن الفضل بن الربيع شغل المكانة الأولى في بلاط الرشيد بعد اختفاء البرامكة عن المسرح السياسي، وإن لم يسد مكانهم، وبعد موت الرشيد أصبح من أبرز شخصيات حزب الأمين في الفتنة التي حدثت بينه وبين أخيه المأمون، وعيَّنه الأمين وزيرًا له[1].

(1) فايزة إسماعيل أكبر: وزراء العصر العباسي الأول، مجلة المؤرخ العربي، العدد الثامن ـالمجلد الأول – مارس 2000م، ص29 – 30.

obeikandl.com

ثانيًا: كتَّاب هارون الرشيد

لما كثرت أعمال الوزراء في العصر العباسي الأول أصبح من الضروري تعيين موظفين يعاونون الوزير للإشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شؤونها، ومن أشهر الكتَّاب في هـذا العصر كاتب الرسائل وكاتب الخراج وكاتب الجند وكاتب الشرطة وكاتب القاضي، وكان كاتب الرسائل يتولى مكانة الملوك والأمراء عن الخليفة، وكثيرًا ما كان الخليفة يتولى ذلك بنفسه[1].

كما كانت الملوك تقدم الكُتَّاب، وتعرف فضل صناعة الكتابة، وتُحظي أهلها، لما يجمعونه من فضل الرأي إلى الصناعة، ويقول: «هم نظام الأمور، وكمال الملك، وبهاء السلطان، وهم الألسنة الناطقة عن الملوك، وخزان أموالهم، وأمناؤهم على رعيتهم وبلادهم»[2]. وقد كان للكتَّاب أهمية خاصة ومنزلة رفيعة في قصور الخلافة، حتى إن الكثير منهم ترفَّع في منزلته حتى نال الوزارة نفسها، على ما كانوا يتمتعون به من الصفات والخلال.

وقد برز في عهد الرشيد كتَّاب كبار، نذكر منهم:

1 – **يحيى بن خالد البرمكي**: وكان كاتب الرشيد[3]، وعلت منزلته من الرشيد حتى أعطاه الوزارة وقلَّده أمور دولته وتصريف أحوالها.

2 – **جعفر بن يحيى البرمكي**: وكان كاتبًا بليغًا، وكان إذا وقع نسخت توقيعاته، وتدورست بلاغاته. قال ثمامة بن أشرس: «كان جعفر بن يحيى أنطق الناس، قد

(1) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي – العصر العباسي الأول، 2/ 214.

(2) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص3.

(3) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص197.

جمع الهدوءَ والتمهل والجزالة والحلاوة، وإفهامًا يغنيه عن الإعادة، ولو كان في الأرض ناطق يستغني بمنطقته عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة، كما استغنى عن الإعادة»[1].

3 - **الفضل بن الربيع**: عدّه ابن عبد ربه في العقد الفريد من كتَّاب الرشيد بقوله: «كاتب هـارون الرشيد محمد المهدي: يحيى بن خالد البرمكي، ثم الفضل بن الربيع، ثم إبراهيم بن صبيح»[2]. وقال في موضع آخر: «وممن نبه بالكتابة بعد الخمول، واستحق اسمها الربيع والفضل بن الربيع، وذكر جماعة من الكتّاب»[3].

4 - **أبو القاسم يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب**: كان كاتبًا بليغًا، من أهل بيت شعر وأدب وبلاغة، وله رسائل مدوَّنة وشعر، وكان يكتب فِي ديوان الكوفة لبني أمية، وكان من خاصة عبد الله بن عليٍّ عمِّ المنصور، ثمَّ إنه كتب للسفاح وللمنصور ولهارون الرشيد. وولَّاه الرشيد كتابة الإنشاء، وعهد إليه يحيى بن خالد البرمكي بأن يكتب إلى الآفاق بالخبر، فكان أول من بشَّر هـارون الرشيد بالخلافة، يوم مات أخوه الهادي سنة 170 هـ، وبشَّره في الساعة نفسها بولادة ابنه المأمون، وكان هـو الذي قام خطيبًا بين يدي الرشيد حين أُخذت البيعة له على المنبر بعيساباذ. وهو والد أحمد بن يوسف أبو جعفر الكاتب وزير المأمون. واختص بيحيى بن خالد بن برمك، فكان يكتب بين يديه ويخلفه على التوقيع وعلى دواوين الأزمة[4].

5 - **إسماعيل بن صبيح**: أول من اشتهر من كتَّاب الدولة العباسية وحذا حذو عبد الحميد الكاتب[5]، وكان كاتب الرسائل والتوقيع والسر وضياع الْخَاصَّة

(1) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص158 - 159.
(2) ذكر ابن عبد ربه إبراهيم بن صبيح، والصواب إسماعيل بن صبيح.
(3) ابن عبد ربه: العقد الفريد، 4/ 247، 252. ابن الأبار القضاعي: إعتاب الكتاب، 1/ 99.
(4) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 230231. ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 561. الصفدي: الوافي بالوفيات، 29/ 121. الزركلي: الأعلام، 8/ 245.
(5) ابن سعيد المغربي: المقتطف من أزاهر الطرف، 1/ 82.

والعوافي لهارون الرشيد، وكان كاتبًا حافظًا بليغًا، وَكَانَ أحسن النَّاس خطًا وأسرعهم يدًا[1]. وكان يقول: «الخط في الإبصار سواد، وفي البصائر بياض»[2]. وهو الذي قال لهارون الرشيد: « إياك والدالة، فإنها تفسد الحرمة»، ومنها أُتي البرامكة[3]. وإسماعيل بن صبيح هـو من أمره الرشيد سنة 188 هـ بعد نكبة البرامكة أن يكتب إلى جميع العمال بما عقد بين ولده: محمد وعبد الله والقاسم من العهد، وأخذه عليهم من الأيمان، فكتب في ذلك كتابًا مشهورًا قال في آخره: «وكتب إسماعيل بن صبيح يوم السبت لسبع ليال بقين من المحرم سنة ثمان وثمانين ومائة»[4].

6 – **منصور بن زياد الكاتب**: وقد قرَّبه يحيى بن خالد البرمكي، حتى كان الناس ربما توسلوا به في حوائجهم[5].

7 – ذكر الجهشياري في كتابه الوزراء والكتاب مجموعة من كتَّاب هـارون الرشيد غير ما ذكرنا، فقال: «وكان من كتابه يوسف بن سليمان، وأبو صالح يحيى بن عبد الرحمن، ويحيى بن سليمان، ومحمد بن أعين، وعبد الله بن عبدة»[6].

(1) خليفة ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، 1/ 465. الصفدي: الوافي بالوفيات، 9/ 75.
(2) أبو منصور الثعالبي: الإعجاز والإيجاز، 1/ 110.
(3) ابن الأبار القضاعي: إعتاب الكتاب، 1/ 103.
(4) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص214.
(5) السابق: ص135.
(6) السابق نفسه.

obeikandl.com

ثالثًا: حجَّاب هارون الرشيد

الحجابة هـي مصطلح أولَ ما ظهر في عصر الدولة الأموية، فلم يعرف الحُجَّاب ولا الحجابة في عصر الخلفاء الراشدين؛ لأنهم لم يمتنعوا عن مقابلة الناس بل كانوا يخاطبون الناس على اختلاف مراتبهم. فما إن انتقل الحكم إلى الأمويين اتخذ معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه - ومن جاء بعده - الحُجَّاب بعد حادثة الخوارج مع علي ومعاوية وعمرو بن العاص رضي الله عنهم؛ وذلك خوفًا على أنفسهم من شر الناس، وتلافيًا لازدحامهم على أبوابهم وشغلهم عن النظر في مهام الدولة. فالمهمة الرئيسية للحاجب هـي إدخال الناس على الخليفة مراعيًا في ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم. وقد قلَّد الخلفاء العباسيون بني أمية، فاتخذوا الحُجَّاب وزادوا في منع الناس عن ملاقاتهم إلا في الأمور الهامة[1].

واسم الحاجب في الدولة دليل رقيها وحضارتها، فكان أعظم الملوك شأنًا لا بد له من ذكر الحاجب وذي الوزارتين، يعنون: السيف والقلم[2]. وكان الحاجب في بعض الأحيان يستبد بالنفوذ دون الوزير، وينظر في أمور الدواوين، ولا يُفصل في أعمالها إلا بعد موافقته[3].

يتبين لنا من ذلك أن مهمة الحاجب جدُّ خطيرة، وأن نفوذه ربما يتعدَّى نفوذ الوزراء، وقد ظهر ذلك جليًا في حُجَّاب العصر العباسي الأول، إذ ازداد نفوذهم

(1) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - العصر العباسي الأول، 2/ 215، بتصرف.

(2) حسين الحاج حسن: النظم الإسلامية، ص179.

(3) أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه، ص120.

يومًا بعد يوم حتى كاد الخلفاء يستشيرونهم دون غيرهم، مما أوجد نوعًا من الغيرة والحقد والحسد المتبادل بين الوزراء والحُجَّاب.

ومن أشهر من حجب لأمير المؤمنين هـارون الرشيد:

أولًا: بشر بن ميمون

ذكر خليفة ابن خياط في تاريخه وابن حبيب في المحبر أن أول من حجب لهارون الرشيد هـو بشر بن ميمون مولى هـارون الرشيد. وقد تابعهما في ذلك المسعودي[1]. ولم تدم حجابته سوى سنتين حيث عزله الرشيد 172هـ.

ثانيًا: محمد بن خالد بن برمك

تولى محمد بن خالد بن برمك حجابة الرشيد سنة 172هـ[2]، وبذلك تعتبر هـذه السنة أول تمكُّن البرامكة في دولة الرشيد، فيحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد والمتصرف الأوحد في أمور الخلافة، وهذا أخوه محمد بن خالد بن برمك حاجب الرشيد والمتصرف في قصره وحجابته، فاجتمع للبرامكة الوزارة والحجابة ومن قبل الكتابة.

وقد حجب محمد بن خالد بن برمك لهارون الرشيد سبع سنوات حيث صرفها عنه هـارون الرشيد وولَّاها الفضل بن الربيع سنة 179هـ[3].

ثالثًا: الفضل بن الربيع

استحجب هـارون الرشيد الفضلَ بن الربيع سنة 179هـ، فقد كان الفضل بن الربيع من رجال الدَّهْر رَأيًا وحزمًا ودهاءً ورياسة، وهو من أبرز حجَّاب الدولة العباسية وأشهرهم، وعلى يديه كانت وقعة البرامكة، فدائمًا ما كان الفضل يروم

(1) خليفة ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، 1/ 465. ابن حبيب: المحبر، 1/ 260. المسعودي: التنبيه والإشراف، 1/ 300.

(2) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص143.

(3) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص 184. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 261. . ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 597.

التشبه بالبرامكة، ولكنه لم يكن يدرك اللحاق بهم، مما مكَّن للحقد والحسد والبغضاء في قلبه، فجعل يكيد لهم المكائد ويدس الدسائس فأوغر قلب الرشيد عليهم حتى أوقع بهم، ونال الحظوة والوزارة من بعدهم. وذلك سنة 187هـ، فاجتمع للفضل الوزارة والحجابة، وقد سار الفضل متمكنًا من هارون الرشيد إلى أن مات الرشيد سنة 193هـ، فقام الفضل بخلافة الأمين، وساق إليه خزائن الرشيد، وسلم إليه البرد والقضيب والخاتم، فأكرمه الأمين وجعل له الحجابة والوزارة وفوَّض له أمور الخلافة، فصار الفضل هو الكل لاشتغال الأمين باللعب واللهو، ولمّا تداعت دولة الأمين ولاح عليها الإدبار اختفى الفضل مدة طويلة، فلما بويع إبراهيم بن المهدي ظهر الفضل، وساس نفسه، فلم يدخل معهم في شيء، ولهذا عفا عنه المأمون إلى أن مات سنة 208هـ[1].

وهكذا فقد نحت الحجابة في عهد الرشيد منحى خطرًا عن وظيفتها الطبيعية – وهي حجب الناس عن الخليفة وترتيب دخولهم حسب منازلهم، فضلًا عن ترتيب أمور القصر – إلى التحكم في أمور الدولة ومشاركة الوزراء في تدبير الخلافة، فكثرت الخلافات وتعددت الوشاية بين الحجَّاب والوزراء، حتى انتصرت الحجابة بنكبة البرامكة، وانفراد الفضل بملك الرشيد حجابة ووزارة. فانفك عقد قوة الدولة وانفرط شملها عما كانت عليه في زمن البرامكة، على نحوٍ مهَّد باندلاع الفتنة بين أبناء البيت العباسي الواحد.

(1) خليفة ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، 1/ 465. ابن قتيبة الدينوري: المعارف، 1/ 384 – 385. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 0/ 185. ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 172 – 173. ابن خلكان: وفيات الأعيان، 4/ 37 – 40. السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، 2/ 150 – 151.

رابعًا: ولاة العهد لهارون الرشيد

مع ما كان يعرف به الرشيد من رجاحة العقل ومع اتساع دائرة مستشاريه من القضاة والفقهاء ورجال الدولة والحكمة، إلا أنه وقع في خطأٍ كبيرٍ في حق الخلافة أدى في نهايته إلى انفراط عقد الأمة وسفك الدماء، يتمثل هـذا في القرار الذي اتخذه بشأن ولاية العهد لثلاثة من أولاده، ليس ذلك فحسب بل تقسيم الدولة فيما بينهم!.

ففي سابقة لم تحدث في تاريخ الأمة، عقد هـارون الرشيد ولاية العهد من بعده لثلاثة من أولاده؛ حيث اهتدى الرشيد سنة 175هـ أن يجعل ولاية العهد من بعده لولده محمد، فأخذ له بيعة القواد والجند ببغداد، وسماه: الأمين، وله يومئذ خمس سنين، فقدَّمه على المأمون، مع أن المأمون أكبر منه، ولكن يبدو أن ميله لزوجته زبيدة واطلاعه على ميل بني هـاشم لمحمد، جعله يؤثر محمد على عبد الله بن مراجل الفارسية.

وكان الرشيد يقول: "إني لأتعرف في عبد الله حزم المنصور، ونسك المهدي، وعزة نفس الهادي، فلو أشاء أن أنسبه إلى الرابعة فيَّ لنسبته[1]، وإني لأرضى سيرته، وأحمد طريقته، وأستحسنُ سياسته، وأرى قوته وذهنه، وآمن ضعفه ووهنه، وإني لأقدم محمدا عليه، وأعلم أنه منقاد لهواه، متصرف في طريقه، مبذر لما حوته يده، مشارك للنساء والإماء في رأيه، ولولا أم جعفر وميل بني هـاشم إليه لقدمت عبد الله عليه"[2]. وما كان للرشيد أن يقع في هذه السقطة الخطيرة، إذ كيف تعدل زوجته زبيدة ورضاها مصير الأمة والخلافة. ومع أن الرشيد لم يكن ليطمئن قلبه إلى هـذه البيعة، لما يعلمه من حال الأمين وطباعه، ولم يستشعر الراحة، فكان يقعد مرة ويضطجع مرة ويبكي مرة، وهو ينشد ويقول:

(1) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 291.

(2) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 9/ 9.

قلد أمور عباد الله ذا ثقــة ... موحِّد الرأي لا نكس ولا برمُ

واترك مقالة أقوام ذوي خطل ... لا يفهمون إذا ما معشر فهموا[1]

وكان البرامكة يعلمون مغبَّة هـذه البيعة، فليس من العدل أن تكون ولاية العهد للأمين دون المأمون، مع أن الأول أحدث سنًّا وأقل كفاءة، وكان المأمون في حجر جعفر بن يحيى البرمكي، فأشار على الرشيد بأن يبايع لعبد الله بعد محمد[2]. وعلى هـذا أخذ الرشيد البيعة بولاية العهد لولده عبد الله بعد أخيه الأمين، وذلك سنة 182هـ، وولاه خراسان وما يتصل بها إلى هـمذان، ولقبه المأمون[3].

"وهذا من العجائب، فإن الرشيد قد رأى ما صنع أبوه وجدُّه المنصور بعيسى بن موسى، حتى خلع نفسه من ولاية العهد، وما صنع أخوه الهادي ليخلع نفسه من العهد، فلو لم يعاجله الموت لخلعه، ثم هـو يبايع للمأمون بعد الأمين، وحُبُّك الشيء يعمي ويصم"[4].

وفي سنة 186هـ عـزم هـارون الرشيد على أداء مناسك الحج واصطحب أولاده محمد وعبد الله والقاسم، ومعه الفقهاء والعلماء والقضاة وكبار رجال الدولة، وكان القاسم بن الرشيد في حجر عبد الملك بن صالح، فلما بايع الرشيد للأمين والمأمون، كتب إليه عبد الملك بن صالح:

يـأيـهـا الـمـلـك الـذي ... لـو كـان نجمًا كـان سعـدا

اعـقـد الـقـاسـم بـيـعـة ... واقـدح له في الملك زنـدا

الـلـه فـــــرد واحـد ... فاجعل ولاة العهد فـردا

(1) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 291.

(2) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص 165.

(3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 269.

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 327.

فكان ذلك أول ما حض الرشيد على البيعة للقاسم، فبايع الرشيد للقاسم ابنه، وسمَّاه المؤتمن، وولاه الجزيرة والثغور والعواصم.

غير أن المسعودي يرى أن الرشيد أخذ البيعة للقاسم سنة 187هـ بعد المأمون، فإذا أفضت الخلافة إلى المأمون كان أمره إليه، إن شاء أن يقرَّه أقرَّه، وإن شاء أن يخلعه خلعه، بينما يرى اليعقوبي أن الرشيد أخذ البيعة للقاسم سنة 189هـ بقَرْمَاسِينُ[1]، وكان بين البيعة للمأمون وبيعة القاسم ست سنين[2].

كتابة العهد وتعليقه على ستار الكعبة

ولما أنهى الرشيد مناسكه أعلن البيعة على الملأ لأبنائه الثلاثة في ثلاث وثائق رسمية، هـي عهد مأخوذ على الأمة كلها بأن تكون عند ما اشترط الرشيد لأولاده. ولما فرغ الرشيد من كتابة العقد أشهد أهل بيته ووزراءه وقواده ومواليه وكتّابه ومن كان في الكعبة معه، وكان جميع ذلك في البيت الحرام، ثمّ رأى أن يعلّق الكتاب في الكعبة، فلمّا رفع ليعلّق، سقط، فقال الناس: "هذا أمر سريع الانتقاض لا يتمّ"، ثم إن الرشيد في سنة 189هـ شخص إلى قرماسين ومعه المأمون، وأشهد على نفسه من عنده من القضاة والفقهاء أن جميع ما في عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكراع وغير ذلك للمأمون، وجدد له البيعة عليهم، وأرسل إلى بغداد فجدد له البيعة على محمد الأمين[3].

---

(1) قرماسين: موضع في طريق مكة. وهي غير قَرْمِيسينُ: وهي مدينة بجبال العراق على ثلاثين فرسخًا من همذان عند الدّينور، ويقال لها كرمان شاهان. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، 4/ 330.

(2) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، 3/ 155. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 293. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 344.

(3) انظر تفاصيل ذلك ونص العقود التي عقدها الرشيد في: المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 291 – 293. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 275 – 281. مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، 3/ 527 – 528. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 9/ 110 – 119. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 343 – 344. ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 634 – 635.

ولم يكتف الرشيد أن جعل البيعة من بعده لثلاثة من أولاده، بل قسم الدولة إلى ثلاثة أقسام: القسم الشرقي: وهو خراسان ويعهد به إلى المأمون، ويعتبر واليًا لأخيه الأمين. إقليم الجزيرة والعواصم: ويعهد به إلى المؤتمن. وتصبح سلطة الأمين مطلقة على ما يلي ذلك من الأقاليم كالعراق والشام وغيرهما.

فلما قسَّم الرشيد دولته بين أولاده الثلاثة قال بعض الناس: "قد أحكم أمر الملك"، وقال بعضهم: "بل ألقى بأسهم بينهم وسيختلفون"، وقالت الشعراء في ذلك، فقال بعضهم:

رأى الملك المهذب شر رأيّ ... بقسمته الخلافة والبلادا
أراد به ليقطع عن بنيه ... خلافهم ويبتذلوا الودادا
فقد غرس العداوة غير آل ... وأورث شمل ألفتهم بدادا
فويل للرّعيّة عن قليل ... لقد أهدى لها الكرب الشدادا
ستجري من دمائهم بحور ... زواخر لا يرون لها نفادا[1]

وهارون الرشيد وإن كان قد احتاط، فأخذ على أبنائه العهود والمواثيق أن يفي بعضهم لبعض، ويبرَّ بعضهم ببعض، ولكن ما قيمة هذا الاحتياط أمام سطوة الملك وسلطانه، ومطامع الإنسان التي لا حدَّ لها، وما قيمة هذه العهود والمواثيق وقد أثبت التاريخ في جلِّ مراحله أنها لا تعتبر عهودًا ومواثيق إلا عند الضعفاء من الأمم والأفراد، أما الأقوياء فإنما هي قصاصات ورق لا أكثر ولا أقل، وقد كان الخلفاء قبل الرشيد يحتاطون لكل بيعة فيها أخذٌ للعهود والمواثيق، ومع ذلك لم ينفع هذا الاحتياط أيام بني أمية ولا أيام بني العباس[2].

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 275 – 277. مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، 3/ 527 – 528.

(2) أحمد فريد رفاعي: عصر المأمون، 1/ 131.